فعلى التفسير الأول للكلمات أو الكلمة يكون المعنى : أن القرآن بلغ أقصى ما تبلغه الكتب : في وضوح الدلالة وبلاغة العبارة وأنه الصادق في أخباره العادل في أحكامه لا يعثر في أخباره على ما يخالف الواقع ولا في أحكامه على ما يخالف الحق ؛ فذلك ضرب من التحدي والاحتجاج على أحقية القرآن . وعلى التفسيرين الثاني والثالث يكون المعنى : نفذ ما قاله ا وما وعد وأوعد وما أمر ونهى صادقا ذلك كله أي غير متخلف وعادلا أي غير جائر . وهذا تهديد للمشركين بأن سيحق عليهم الوعيد الذي توعدهم به فيكون كقوله تعالى (وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا) أي تم ما وعدهم به من امتلاك مشارق الأرض ومغاربها التي بارك فيها وقوله : (وكذلك حقت كلمات ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار) أي حقت كلمات وعيده .

ومعنى : (لا مبدل لكلماته) نفي جنس من يبدل كلمات ا أي من يبطل ما أراده في كلماته .

والتبديل تقدم عند قوله تعالى : (قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير) من سورة البقرة وتقدم هناك بيان أنه لا يوجد له فعل مجرد وأن أصل مادته هو التبديل . والتبديل حقيقته جعل شيء مكان شيء آخر فيكون في الذوات كما قال تعالى : (يوم تبدل الأرض غير الأرض) . وقال النابغة : .

عهدت بها حيا كراما فبدلت ... خناطيل آجال النعاج الجوافل ويكون في الصفات كقوله تعالى : (وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) .

ويستعمل مجازا في إبطال الشيء ونقضه قال تعالى : (يريدون أن يبدلوا كلام ا) أي يخالفوه وينقضوا ما اقتضاه وهو قوله (قل لن تتبعونا كذلكم قال ا من قبل) . وذلك أن النقض يستلزم الإتيان بشيء ضد الشيء المنقوض فكان ذلك اللزوم هو علاقة المجاوز وقد تقدم عند قوله تعالى : (فمن بدله بعد ما سمعه) في سورة البقرة . وقد استعمل في قوله : (لا مبدل لكلماته) مجازا في معنى المعارضة أو النقض على الاحتمالين في معنى التمام من قوله : (وتمت كلمات ربك) . ونفي المبدل كناية عن نفي التبديل .

فإن كان المراد بالكلمات القرآن كما تقدم فمعنى انتفاء المبدل لكلماته : انتفاء الإتيان بما ينقضه ويبطله أو يعارضه بأن يظهر أن فيه ما ليس بتمام فإن جاء أحد بما ينقضه كذبا وزورا فليس ذلك ينقض وإنما هو مكابرة في صورة النقض بالنسبة إلى ألفاظ القرآن ونظمه وانتفاء ما يبطل معانيه وحقائق حكمته وانتفاء تغيير ما شرعه وحكم به .

وهذا الانتفاء الأخير كناية عن النهي عن أن يخالفه المسلمون . وبذلك يكون التبديل مستعملا في حقيقته ومجازه وكنايته .

ويجوز أن تكون جملة : (وتمت كلمات ربك) عطفا على جملة : (جعلنا لكل نبي عدوا) وما بينهما اعتراضا فالكلمات مراد بها ما سنه ا وقدره : من جعل أعداء لكل نبي يزخرفون القول في التضليل لتصغى إليهم قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ويتبعوهم ويقترفوا السيئات وأن المراد بالتمام التحقق ويكون قوله : (لا مبدل لكلماته) نفي أن يقدر أحد أن يغير سنة ا وما قضاه وقدره كقوله : (فلن تجد لسنة ا تبديلا ولن تجد لسنة ا تحويلا) فتكون هذه الآية في معنى قوله : (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات ا) . ففيها تأنيس للرسول عليه الصلاة والسلام وتطمين له وللمؤمنين بحلول النصر الموعود به في إبانه .

وقوله : (وهو السميع العليم) تذييل لجملة : (وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته) أي : وهو المطلع على الأقوال العليم بما في الضمائر وهذا تعريض بالوعيد لمن يسعى لتبديل كلماته فالسميع العالم بأصوات المخلوقات التي منها ما توحي به شياطين الإنس والجن بعضهم إلى بعض فلا يفوته منها شيء ؛ والعالم أيضا بمن يريد أن يبدل كلمات ا على المعاني المتقدمة فلا يخفى عليه ما يخوضون فيه : من تبييت الكيد والإبطال له .

والعليم أعم أي : العليم بأحوال الخلق والعليم بمواقع كلماته ومحال تمامها والمنظم بحكمته لتمامها والموقت لآجال وقوعها